الدرس العاشر/الروائي عبد الحميد بن هدوقة :

الحديث عن الرواية العربية في الجزائر، يبدأ بالرواية الفنية الأولى(**ريح الجنوب**) لعبد الحميد بن هدوقة الروائي الذي عاش في روايته تجربة المجتمع الجزائري وهمّه أن يدخل أكبر قدر ممكن من التطورات المستقبلية، ومن يقرأ رواياته:(ريح الجنوب ـ نهاية الأمس ـ بان الصبح ـ الجازية والدراويش ـ وغدا يوم جديد) يشعر أنّه أمام ملحمة الجزائر، بدءا من النضال الثوري، الكفاح المسلح، إلى النضال الاجتماعي إلى التحولات الاجتماعية والثقافية والفكرية. فكان العمل الإبداعي عند(بن هدوقة) يستوعب هذه القضايا المتشابكة والمتداخلة.

أولا/ نشأته وثقافته:

ولد(عبد الحميد بن هدوقة) في(09 جانفي 1925) ببلدة **المنصورة** التابعة لولاية برج بوعريريج، وفيها قضى طفولته ودراسته الابتدائية باللغة العربية، ثم التحق بمعهد(**الكتانية**) بمدينة قسنطينة، وسنه لا يتجاوز(الخامسة عشر)حتى عام(1946)، حيث اضطره الواقع للسفر، فشدّ الرحال إلى(**مرسيليا**) بفرنسا كان له فيها احتكاك بالواقع المرير للمهاجرين الجزائريين، ذلك الواقع الذي ينقله من بعد في قصصه ليعود إلى أرض الوطن متابعًا دراسته بمعهد(الكتانية عام 1950) قسنطينة، ليلتحق بعدها(**بجامع الزيتونة**) بتونس، طالبًا في فرع الآداب وفي نفس الوقت كان يتابع دراسته بمعهد(الفنون الدرامية). وفي عام (**1954**) عاد إلى أرض الوطن، حيث عمل أستاذا للأدب العربي في معهد(**الكتانية**) بقسنطينة وكان مناضلا في المقاومة..، مما دفع الاستعمار الفرنسي إلى ملاحقته فهرب إلى فرنسا(سنة1955) إلا أن الإقامة لم تَطِب له، فعاد إلى (تونس) مرة ثانية وفيها تفرغ للنشاط الفكري من أدب وفن.. وكان يعدّ برامج(أدبية وفنية)لإذاعة تونس، كما كان يشارك في برنامج (**صوت الجزائر الجديدة**) إلى جانب كل من(لمين بشيشي)، و(محمد بوزيدي)، و(مصطفى كاتب)... .

وبعد نيل الجزائر استقلالها الوطني(سنة 1962)، عاد إلى أرض الوطن، ليمارس نشاطه في الإذاعة والتلفزة الوطنية منتجًا ومشرفًا على البرامج، وفي (عام 1989) عين مديرا مسؤولا عن المؤسسة الوطنية للكتاب، ثم كلف رئيسًا للمجلس الوطني للثقافة في الجزائر، كما أنتخب أمينًا مساعدا لإتحاد الكتاب الجزائريين منذ(مارس 1990). وفي(21 أكتوبر 1996) وبعد مقاومته لمرض عضال ألزمه الفراش **تنطفئ شمعته ويرحل عن عمر يناهز 71سنة**، تاركًا وراءه إرثًا ثقافيًا وفكريًا معتبرًا، يشهد على مكانته في العالم والوطن العربي بصورة عامة، والجزائر الأم والوطن بصورة خاصة. وهو الذي عبر عن حبه

لوطنه وأرضه في إحدى قصصه(**خطيبتي جميلة كالشمس، لطيفة كالنور، عذبة كالخلود أو هي الخلود..إنني أحبها حبًّا مطلقًا قدسيا، حبًّا أبلغ من الألم وأقوي من الموت وألذّ من الحياة.. لقد عرفت الحب مثلي فكلانا يتألم وأخوة الألم فوق أخوة الدم)** .

ثـانيــا/ مـؤلـفــاتـــــــــــه:

1ـ فـــي الـروايـــــــــة:

*- ريح الجنوب سنة 1971، و نهاية الأمس 1975، و بان الصبح 1980، و الجازية والدراويش سنة 1983. و غدا يوم جديد سنة 1992.

2ـ فـي الـقـصــــــــة:

*- ظلال جزائرية. *- الكاتب وقصص أخرى. * - الأشعة السبعة.

3ـــ في قصيـدة النثـــر**/** الجزائر بين الأمس واليوم.

ثـالـثـــا/ بن هـدوقـــة بين الـتـأسـيـس والـتـأصـيـــــل:

يؤكد العديد من الدارسين على أن رواية(**ريح الجنوب**) تمثل البداية الحقيقية للرواية الفنية العربية في الجزائر،ولعل ما يميز هذا العمل الروائي الرائد هو تماسكه واستناده بشكل واضح على التراث الجزائري واهتمامه بالتصوير للواقع وتحليله لهموم الفئات الاجتماعية المختلفة. وباختصار يمكن القول أن زوايا اللوحة الاجتماعية هي:(الإقطاع، المرأة، البؤساء، والسلطة..)، وهذه اللوحة مثلتها شخصيات تتحرك وتتفاعل من موقعها مع بعضها البعض لتكون الحدث الدرامي نفسه. حيث يشكل استثمار الكاتب المكثف(**للحوار**) أبرز سماتها، إذْ يشتغل وظيفيًا للكشف عن الوضع البائس للمرأة الجزائرية في علاقتها بالآخر/ الرجل والمجتمع، عبر عدد من النماذج النسائية هي:(نفيسة ـ خيرة والعجوز رحمة..) وكذلك لإبراز العلاقة الصدامية بين الأجيال. وفيما يتصل بالحديث عن الآخرة:(الموت ـ وما وراء الموت) من خلال استثمار المخيال الإسلامي: (النار- الجنة ـ النشر ـ البرزخ ـ القبر..)، وكذلك تناول مسألة(الثورة الزراعية) وما أثارته من جدل بين الشباب المتطوعين والإقطاعيين. كما عمد الكاتب إلى استثمار تقنية (**التذكر**) في استعادة جوانب من ماضي الشخصيات، وصور من تاريخ الثورة الجزائرية زمن التحرير فضلاً عن استثمار لأبيات من قصيدة(**البردة**) للبوصيري، وأخرى من الشعر الملحون عن المرأة للشيخ (**عبد الرحمان المجدوب**).. لقد اكتملت رؤيته الإنسانية في وحدة متشابكة متكاملة وتعدد وسائل تعبيره

فيخوض داخل النفس وفي أعماق المجتمع، ويبحر في سماوات التراث والأساطير والواقع.. واللغة ترتدي الأقنعة الرمزية الشفافة، وتتدفق في رحلة ملحمية أو مغامرة اجتماعية مثيرة..

ومن الملاحظ أن(ابن هدوقة) ينظر إلى**(الزمن)** نظرة خاصة، فهو يعانق الزمن عناقًا حارًا، بل يرتمي في أحضانه بإحساس فيه كثير من الخوف على الحاضر، وحتى على المستقبل فليس غريبًا إذْ أن يعبر أبطاله عن ميلهم إلى الزمن الماضي أمام حاضر يتسم بالمرارة والخيبة. ويعتبر الزمن عامل أساسي في تحريك الأحداث، والتفاعل مع الواقع، من دونه لا يتأسس العمل الإبداعي لكونه ركيزة أساسية تساهم في بناء وسير الأحداث.

أما فيما يخص(**بنية المكــان**) لقد اختصر الحيز المكاني على مستوى**(القرية)**، ولم يتجاوز إلى أمكنة أخرى، بل حددها في إطار معين، تَجَسَّد داخل مضمون حكائي، تمثلت في أمكنة معينة من بينها:(بيت ابن القاضي وبيت الراعي رابح، ومقهى حاج قويدر، والمقبرة، والسوق الأسبوعي كل يوم جمعة..)، فهي أمكنة حقيقية، حيث يصور لنا من خلالها كل ما تتصف به**(القريــة)** من شتى الجوانب، وهي فضاء أو حيزا جزائريًا تقليديًا شعبيًا لمجتمع ظل متمسكًا بعاداته وتقاليده.. وهذه الأمكنة سواء كانت مغلقة أو مفتوحة ذات صلة عميقة بالشخصيات، مما ينبئ مدى قدرة الكاتب على توظيف الشخصيات وتوزيعها في الرواية على الأمكنة، وهذا لم يكن اعتباطيًا، بل متناسقًا ومنسجمًا ومتناغمًا مع بنيتها الجسدية والنفسية، وهذه الأمكنة فهي حقيقية واقعية وليست خيالية.

رابعـــا/ الـتجـريـب في روايــة الـجازيـــة والدراويـــش:

والواقع أن التجريب يدرك مداه من النضج في رواية(**الجازية والدراويش**) فهي تشكل تحولاً نوعيًا في مسيرة الروائي الإبداعية، وعلامة متميزة فيه، لما توفرت عليه من علامات دالة على امتلاكه من عناصر وعي نقدي بشروط الرواية وأدواتها الجمالية في صياغة الرؤية والتعبير عن الموقف، وذلك عبر استثماره(**الجازيــة**) رمزا جماليًا لجزائر الاستقلال، وهو ما يؤكده في قوله:<< **ترمز الجازية إلى الجزائر أردت أن أذهب بأسطورة الجازية إلى بعد فني وسياسي من خلال جازية الروائية..أردت أن أُكذّب كلام قارئة الكف وأقول : ليس صحيحًا، الشعب ليس قاصرا..**>>.

كما استثمر- في ذات السياق- عناصر التراث الشعبي/الجزائري والمغاربي، وتتمثل في طقوس كل من: (الزردة والحضرة) والتي قام بأسطرة أجوائها التي تجاوزت الواقع إلى اللاواقع، عبر تداخل حركات (الرقص ولعق المناجل المحماة، وحالات تجلي الدراويش الصوفية وبكائها وأصوات الزرنة والبنادير

وأصداء قصف الرعود، ووميض البرق، وانهمار المطر، وتساقط البرد، وهبوب العاصفة التي أتت على الفلائح والغلال وأصابت الدشرة بدمار شديد..) وهي الأسطرة التي طالت المكان والشخوص والأحداث على حد السواء. فقد ورد(**المكان)** مطلقًا غفلاً من التحديد يلونه الغيب/ والخرافة إذْ**(يقال عن الجامع أنه مدفون به سبعة ! يعبر السكان عن ذلك بعبارة متداولة بينهم: سبعة يغباو وسبعة ينباو).** واكتسبت(**الشخوص)** أبعادا أسطورية وخاصة شخصية(**الجازية)** التي أضفى عليها الكاتب نوعًا من الكثافة الرمزية عبر اشتغاله على لعبة الإضمار والمكاشفة، الواقعي والمتخيل، والحقيقي في صياغة حضورها النصي. إلى جانب استثماره آية قرآنية كلازمة **(لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)** وتوظيفه تقنيات **التذكر** و**الحلم** و**التداعي** في صياغة خطابه السردي وتشكيل أنساقه في لغة بلاغتها في بساطتها. وتظهر(**النزعة النقدية)** لسلطة الاستقلال في هذه الرواية من خلال تأكيد الكاتب لموقفه القائم على أن الجزائر**(بلد ليس قاصرا)** حتى يكون مطمعًا للدول الأجنبية، ومن ثم فإن الشعب الجزائري ليس قاصرا كما تنظر إليه السلطة وتعامله .

- ويبقى التجريب في أعماله الروائية تأسيسيًا، إذْ بدا حيًّا في نصوصه(ريح الجنوب) و(نهاية الأمس) و(بان الصبح) قبل أن يتخلى عن التقليد ليضرب في مسالك المغامرة الروائية في روايتيه الأخيريتن: (الجازية والدراويش) و(غدا يوم جديد) توقًا إلى المغامرة السردية، وهو ما جعله يحقق إضافة نوعية للمشهد الروائي الجزائري المكتوب بالعربية، ستكرسها أعمال كاتب آخر تشترك في انخراطها في مذهب التجريب بحثًا عن أفق حداثي في الكتابة الروائية: وهو(**الطاهر وطار).**